عابد الشمس

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

عزيزتي الحائرة

ما عساي أن أقول لك بعد أن مرضت ، وهل يبرئ الجرح غير يد الطبيب ؟ وطبيبك مع الأسف رجل لا يعرف من المرأة غير جسمها ، ولا يلمس في الحياة غير مواطن المادة

وأنا لست طبيبة يا صاحبتي ... كل ما أجود به على الخلائق حناني وعطفي ، وهل يكفي الحنان لتضميد الجروح ؟ لا أظن !!

ودليلي أن الحنان يفتح دائماً فوهة القلب فإذا بعيون من المواطف تتطلع إلى ما هو أعمق من الحنان وأغزر من العطف ، إلى المنهل العذب الذي يفيض بالرحيق المشتهى الذي يصوره النطق في شبه حروف تؤلف كلمة واحدة ـ الحب ـ ويترنم به الحس ويسميه الشعور !

إذن لا فائدة من مواساتي بعد أن صدمتك الحياة في الصميم ، لترديك إلى محط المعرفة فيلسوفة بغير تعليم

خلي عنك نصائحي فإنها لا تجدي ... ومتى أصلح النصح مخطئاً أو هدى ضالا ... ؟

حسبك ما علمتك إياه الحياة عن طريق صدمتك .

إنك الآن أكثر مني تفهماً للحياة

ولا أحسبك إلا غاضبة على عند ما تعرفين الآن أني لا أجفف من دمعك ولا أرفه عن أساك ، بل أشدك من شعرك في قسوة لا تتفق مع رحمتي التي جذبتك إلى كنفي في تواضع رغبة في مواساتي وطمعاً في نصيحة ترد إليك كبرياءك الذاهبة

أجل أجذبك في عنف وألقي بك في اللهب الذي أشعلته بيديك ... ليتطهر جسمك وتتصهر ماديتك في بوتقة الألم والعذاب ... وفي النهاية ستشعرين عن يقين أنك شفيت رغم ما تركه اللهب على جسمك من علامات ما كان بد منه من عذاب

وليس اللهب الذي أدفعك إليه كالنار أو الشرر المتطاير ... إنما هو لهب النفوس كلها أجمعه بجرة قلم من محيط الكون في دائرة محدودة ، ولا ألقيك وحدك إنما ألقي معك في وسط هذه الدائرة الملتهبة بغير دخان ، أنفاس الرجل الذي خانك ، وأخرجها في حرارة كما يقول وقد أتقن صياغتها بقلمه البارع

هذه الأنفاس التي تحيي وتميت ... الأنفاس التي أحييتك وبعثت في نفسك حلو الآمال ثم أماتتك تاركة خلفك أمر الآلام

هذه الأنفاس هي رسائل الرجل الذي أحبك بالقلم وتركك بالقلم ، وهي التي أدفعها الآن ثمناً لما أصابني منك من جهد الخيال ... فأعرضها لتكشف للناس سورة من صور الأضاليل ... كيف يبدع القلم التصوير ولا يعاف القلب التغرير ؟

والآن لا أرد إليك رسائل صاحبك التي بعثتها

إلى لأطلع عليها وأبدى رأيي فيها يتجه القلم الصامت على ضوء الحب الكاذب .

لا أردها إليك سرًا بل أردها إليك جهراً بل صحيح كل من يجذب نظره ضوء الأدب ... وقد لا يفيدك هذا — على ما أعتقد — إذ سوف يترجم عليك كل قلب رحيم ... فاجمعي كل ما يصل حسّاك من مواساة الأرواح اللامرئية واستعيضي بها عما أصابك من بلاء روحي سببه لك ذلك الرجل الذي يحب كل النساء كما تقولين ويعبد كل شمس متجسمة في امرأة

***

آنستي (هبة)

إنها لسكتة غير قصيرة طال فيها أمد الصمت ، ولست أدري بماذا أو كيف أقطع عليك هذا الصمت الذاهل فأحرمك تأملات فلسفية ، ورؤى شعرية سحرية ، ولست أدري أيضاً أتخطيء أنا أم مصيب حين أفاجئك بهذه الرسالة فأقطع عليك سلسلة خواطرك وإلهاماتك ، وأنقلك من دنياك المشرقة الواعية ، إلى دنيانا العابسة الفارغة؟ وسواء أخطأت أم أصبت فليس ثمة محيص من الكتابة إليك بعد ما انتظرت أن تكتبي لي ولو بما يطمئنني على سلامة عودك ، ولكني لم أحظ حتى الآن إلا بمرارة الانتظار ! ولم يكن في الاستطاعة أن أكتب إليك فيما سبق ؛ فأنا شاب لم يألف الكتابة بين الصخب والضجيج والارتحال والانتقال ، ولم يكن ذلك هو السبب الأصيل ، ولكن هناك سبب آخر ، ذلك أني رأيت أن أخصك بأدوات جديدة للكتابة فلا أكتب بها أو فيها إلا لك ، ولست أدري تعليل هذا الخاطر ، ولعله خاطر شعري ، وعلى كل حال فهو خاطر جميل ، والآن وقد اكتملت هذه الأدوات وارتحت بين أكناف الريف الوادع الجميل فإني أكتب إليك ذاكراً تلك السعادة التي غمرتني بمعرفتك

وبعد: فإني طائر شاعر يعيش على الأحلام وبقتات بالذكريات لا يحب أن يصطدم بالواقع ولكنه دائم الاصطدام ، فهو يود الحياة مستقيمة سهلة ، لا عوج فيها ولا نتوء !

وإني لأطمع أن تفتحي لي كوة أطل منها على دنياك ، رياضها وجنابها ، هضابها ونجادها ، وأن تمديني بفيض من الأحلام والإلهام في هذه البيئة أحيا ، وبين هذه المآلف الحبيبة أنتقل وأعيش

— ٢ —

« هبة »

وصلتني رسالتك وأول ما ألاحظه عليها قصرها — هذا القصر المخل — مع أني أريدها طويلة كالمسافة التي بيننا ، متعددة المناظر كالتي أتعلاها وأنا في الطريق إليك !! . أريدها رسالة يشفق البريد من حملها ، ولكنك أبداً ضنينة حتى بالكلام ... آه ... « هبة »

لقد وقعت في الشرك حتى لم يعد لي أمل في النجاة ، فأنا — ولا أخفي عليك — قد حاولت أكثر من مرة ألا أسترسل معك في الكتابة . بل لقد حاولت جهدي ألا أطلعك على ذاتي مجردة عارية ، ولكن قائل الله الثلاثة : يدي ، وقلبي ، ونظري أحبك ؛ نعم — وأعبدك ، وأحرق ذاتي بخوراً في هيكلك المقدس ولكنك لا تحسين أبداً بهذا الحب العابد المحترق !

يا هبة . لا أحب أن أشرح أو أصف لك ما أعاني ، وكل ما أحب أن أقوله إني وهبت قلبي لك

فإذا شئت أن يحيا فهو لك . وإذا شئت أن يتحطم فهو لك أيضاً . ولكن روبدك فقد سرقت قلباً ونسيت مفتاحه، وكنت أريد ألا أعطيك مفتاحه حتى يظل أمامك طالسما وتظلين أمامه فى حيرة ولكن ما انتفاعى بالمفتاح ما دام قد سرق الكنز ؟

يا هبة

قلبى شىء إلى آخر حدود الشىء، فهو إذا جاع أو عطش فلا خيرات الأرض وأنهارها ولا أنهارها وبحارها بكافية لأن تسد جوعته أو تطفئ حرارة ظمئه .

ولعلك بهذا تعرفين كيف تنتفعين به ومنه .

— ٣ —

هبة !

ليتنى أدرى ما الذى دهاك عنى ومثلك لا يمكن أن تكون إلا وفية كريمة ...

يشهد الله أنى ما حملت لك أو أحمل إلا كل عاطفة شريفة ونية طاهرة مطهرة وقلباً يرف عليك

ويشهد الله كذلك أنى لم أحلك من نفسى إلا فى أعمق مكان ولم أضمك إلا فى شغاف الأكمة الأولى أتوسل إليهم بصلواتى وفناء ذاتى ، ويشهد الله أيضاً أنها لكلمات يسيل بها القلم خالصة مخلصة لا تعرف الرياء أو النفاق . فى مثل اضطراب الأمواج خواطرى فى هذه الأيام ، وكمثل الغيب نفسى المظلمة — !

ولو علمت أى حدث جرىء وأية زلة ارتكبت لجثوت أمامك تائباً مستغفراً . لقد أفهم أن تنكر لى الحياة فلا آبه لها وأن يأتمر بى الواجدون فلا أحفل بهم ، وأن يقطع الأصدقاء حبل مودتى فلا ألتفت إليهم

ولكن الذى لا أفهمه أو أطيقه أن تغضبى أنت منى . ومذا الذى ألوذ به وأطلبه على خيبة نفسى بعد اليوم إذا كنت تعاملينى معاملة أولئك الأرقاء ؟

ألا فاتقى الله فى نفسى وقلبى فإنى لا أعتقد أنك تمانين ما أعانى وتجدين ما أجد وتحملين نفسك ما لا تطيق !

وإنى لأتمنى أن تظل نظرتك إلىّ واحدة على الأيام .

وإذا كنت عفوت هفوة لم أقصدها فحسبى عقاباً هذا السكوت الذى أقض مضجعى وأمض نفسى وأطلق فى سماء حياتى سحب اليأس والضيق والبرم بالحياة

وأخيراً ما زلت لك المخلص الأمين .

— ٤ —

« هبة »

ومهما يكن من شىء، فإنى مدين لك بهذه الرسالة التى فتحت أمام ناظرى آفاقاً جديدة وعوالم غريبة من نفسك — نفسك التى طالما لففتها بثوب من الحذر والغموض . وهكذا لا بد للورد من وخز الشوك . والآن بعد أن اجتزت فترة الاختبار فى تجربتك القاسية فإنى أرى نفسك تبدو أمامى عارية من كل ثوب مجردة عن كل غطاء، وإذا هى طفلة وديعة طاهرة نبيلة تهيج أحياناً وتثور ولكن هياج النبوغ وانفعال العبقرية وما أشبهنى بالموجة تحركها النسمة فإذا هى غاضبة ثم سرعان ما يستحيل هذا الغضب إلى رحمة وحنان على الصخور

وإنه ليسرنى أن تثرى بين يدى نفسك ماحوته ووعته ثم لا بأس عليك من ذلك — وماذا يكون

لو أخذ كل منا من صاحبه أخاً لنفسه يهمس إليه بما يختلج فى خاطره إن خيراً أو شراً دون خجل أو حياء، ورب أخ لك لم تلده أمك .

* * *

أعود إليك يا صاحبتى ...

كان يكفى أن أقف بك هنا لأترك القارئ يسرح بخياله فى عالم نورانى يرى فى سمائه كل ما يشتهى الخلص من أمان حسان

ولكن لا بد أن أعقب على تعليقك بعد هذه الرسالة ... إذ تقولين إن تلك الرسائل رغم سحرها لم تبلغ عمق نفسك وإن الشك ظل يراودك ويقف بك بعيدة عن رغبات صاحبك حتى اشتدت حيرتك بين رغبتك وحذرك ...

قلبك يدنيك منه

وعقلك يقصيك عنه ...

وضباب الشك يشرف على أحلامك فيشوه حقائق أمانيك ...

وظللت هكذا حتى كتب لك :

(هبة)

إسمى يا هناه !

إنى لأعجب من تمردك علىّ هذه الأيام ومحاولتك مسّى بالإيجاع، مسّا دون مقتضى أو داع !

أتقصدين ذلك حقاً ؟ أم تفعلين على سبيل التدلل ؟

أما الأول فلا أطيقه، وأما الثانى فقد أحتمله !

على أن المؤلم أنك فى الوقت الذى أنتظر فيه رحمتك تغضبين، وأقترب فتبعدين، وأتكلم فتسكتين، وأتى فتشكين !

ومتى تؤدين رسالتك يا فتاتى ... إن لم تؤديها فى مثل هذه الظروف القابضة ؟ إننى لقادر على أن أعيش فى كل صقع وأحيا فى كل مكان، وأن أقابل الشدائد فلا تنال منى إلا كما تنال الرياح العاتية من الجبل الأشم !

ولكن الذى لم أزل أهفو إليه وأفتش عنه هو القلب !

القلب الذى يؤنس وحشتى ويبدد ظلمتى ويقدرنى دائماً على المقاومة والتجدد فى الحياة !

ولا تظنى أنى أجرب قلمى بهذه الجمل الموشاة، ولا تظنى كذلك أنها كلمات كتلك الكلمات التى اعتاد الرجل أن ينال بها إعجاب المرأة ويستولى على قلبها، ولكنها كلمات أروّى فيها طويلاً قبل أن أسطرها — فهى كلمات من لحم ودم، كلمات تزخر بالحياة وتموج بالصدق، ولولا أنى واضح ظاهر ما سجلت إليك كلمة واحدة من هذا ...

وأنا إذ أيدى لهفتى إليك وانشغالى بك - أحب أن تقدرى هذه المواطف النبيلة

المواطف التى لا ترى إلى شىء وراءها، فإنى أحبك لما بهرنى من روحك القوية السمحة ودماثتك الفائقة وشاعريتك المتنوعة، أما الجسم وإن كان رشيقاً فاتناً بديعاً فلا شأن لى به ولا مطمع، وإذا كان هناك ما يخيفك من الرجال فليس الذنب على وإنما هو على سماحتك التى تفرض كل الرجال ملائكة لا أناساً

أما بعد فطائرك الفرد لا يزال بين يديك، فحذار أن تتغلى عليه بهذه الأساليب التى لا تجدى معه شيئاً وإلا ألجأته أن يهجر جنتك آسفاً، وإذ ذاك يظل قابعاً فى وكره فلا ينفعك ولا ينفع نفسه، وبذلك تشقين نفسك وتشقينه !

أرجو أن يصلك هذا وقد عادت إليك ابتسامتك وإشراقك . أنا الآن طريح الفراش يا هبة ولا أحد معي يؤنسني إلا زفرات حارة أصعدها، فالرحمة الرحمة، — واعلمي أن كلمة منك طيبة كفيلة بأن تزيح عني عبئاً ثقيلاً فهل أنت فاعلة ؟

* * *

(هبة)

إني لأتألم ... بل أعجب كيف أنك إلى الآن لا تزالين تجهلين نفسيتي وعواطفي وميولي تماماً ... وأنا أطمع في أن يشملني حبك وتغرقني رغبتك الأكيدة في أن تكوني بجانبي إلى النهاية مهما حالت بيننا الحوائل

أنا الآن في المنزل جالس إلى مكتبي بعد أن عدت من العمل خائر القوى ، ومع أن الحر شديد والتعب يكاد يمسك على مسارب أفكاري ، فإن بي نزوعاً إلى استئناف الكتابة إليك

وأحب أن تذكري أن حبي لك غريب لا يمت إلى ما تواضع عليه الناس بصلة، حب يميزه عن سائر أنواع الحب عمقه وطهارته وخلوده وإخصابه !

لست أنكر أني عرفت من قبلك ألف قلب وقلب وحطمت ألف قلب وقلب ... حطمتها لأني لم أجد فيها القوة السحرية الخفية التي تفتح عيني على النور وتوقظ في أشواق الحياة وتدفعني إلى الخلق والإبداع ، وتجمل الوجود في ناظري

حطمت كل هذه القلوب لأنها كانت كالمرائين والدمى ، بل لأنها كانت (كورد الحمار ! !) منظر ولا رائحة !

وإذا كنت لا أنكر ذلك فإني لا أنكر كذلك أنك كنت المثل الأعلى الذي تصبو إليه روحي وتحن أحلامي . لقد رأيتك فرأيتني منجذباً إليك انجذاب الحديد بالمغناطيس ، ونظلمت إلى عينيك فإذا بي أرى فيهما رهبة معبد مقدس ... لقد كانتا عميقتين عمق الأبد تنظران إلى السماء كأنما تبحثان عن سر ضائع . وأخيراً استمعت إلى حديثك فإذا كلمات عليها طابع الدوام كأنما تحمل تجارب القرون ...

حينئذ شعرت أني ولدت ميلاداً جديداً وأن روض حياتي قد نجمت فيه أزهار من نوع جديد ! وحينئذ أيضاً حرصت على مودتك وعاهدت نفسي أن أكون حريصاً على الوفاء لك ما بقي بجسمي نفس يتردد !

والآن ، هل تدرين مدى تأثيرك في حياتي !

لقد نقلتني من الظلام إلى النور وأجريت في أعصابي خلاصة أجيال من عزم وإرادة وعبادة للحق والقوة والحرية والجمال ! ...

ثم هل تدرين أيضاً وفائي لك في بعدك ؟

إنني أستميض بك عن رؤية الناس ومودتهم فأنت تسامرينني في وحدتي واجتماعي وأنت تمسحين عن جبيني عرق الذل والكلال كلما أجهدتني عجلة الحياة !

وأنت تفتحين أمامي أودية المجهول فأرودها ! وأنت تلازمينني في منزلي ، وأنت تؤنبينني كلما أهملت في واجب ! وأنت في النهاية تعصمينني من التردي في مهاوي الهلاك ومهاوي الضلال ! ...

فلهذا أحبك حباً صرفاً

ولهذا أدعوك إلى أن تصححي نظراتك إلى علاقتنا السماوية المباركة

وكل ما أريده أن تهبيني كل عاطفتك ولتتصارع حتى بالرغبات الخفية ولتقفزي إلى دنياي

كما أعوزك الصدق والحب فى دنيا الناس ولتكونى وفية لى فى محضرى ومغيبى ولتحسسى ميولى وتفقدى ما أرتاح إليه

لا أريد أن تعبرى عما تطوى عليه جوانحك بكلمة ولكن باختلاجة أو حركة أو روح عامة تموج فى رسائلك فتشعرنى بما لى عندك من منزلة أو اعتبار

إننى لا أريد أن تقف علاقتنا عند حد السطحية بل أريد أن أسمع منك : دع هذا وافعل ذاك وتعال هنا واحذر أن تتأخر وأغضب منك إذا فعلت كذا

إننى لا أكون غالياً إذا قلت لك إن اهتمامى بك يربو على اهتمام الوالدين والإخوة ، ولست آسفاً على شىء ، فإننى ما دمت أنت بجانبى أستمد من تشجيعك قوة ومن حبك أسمة تبدد أمامى ضباب الحياة ! ...

آه ! ماذا أقول ؟ ومالى أجشمك ارتياد هذه الوديان المتأشبة ؟ وأخيراً ... تقى أنى سأطوى قلبى على حبك وسوف أكون لك الدوحة الفينانة التى تفزعين إليها فتنىء عليك من ظلالها ، وتضمك إلى أحضانها كلما لجأت إليها

واعلمى أن الغيب يضمر لك حياة خالدة بحبى .

هبة ...

كلمات كثيرة تريد أن تثب من شفتى على أسلة هذا القلم ولكنى أكبحها بقوة عاتلة !

آه لو تدركين ما أريد ، ولكن أنت لا ترحمين مهجة صب .

كنانة الذكرى

وليست هذه الكنانة إلا مجموعة من الرسائل وعاها ظرف واحد وهبطت على منك فى فترات متقطعة ...

ولست أدرى كيف اجتذبتنى إلى عالمها بين هضاب ووهاد وزهور وأشواك وتقطيب وإشراق وهدوء وثورة وثرثرة وصمت وآمال وآلام وحقائق وأحلام وتلميح وتصريح وبيان وغموض ، ولقد قرأتها رسالة رسالة ، واستوعبتها فكرة فكرة ، ووقفت على مايحسن أمامه الوقوف فرأيتك فيها على اختلاف أغراضها وتباين مناحيها مثالاً للفتاة الطيبة السرية ، الفتاة التى تحيا فى الحياة بعقل حالم وخيال كاشف وروح مستغرق وخاطر متوثب وإحساس متفتح وشعور غامر دافق !

أجل ، ورأيتك أيضاً مثالاً للعبقرية الفائقة الخالقة العبقرية التى تعبد الفن وتفنى فى ذاته كما يفنى الصوفى بين نور الإله الجليل ، ولقد وجدت فى هذه الرحلة الروحية متاعاً لم أستلذه أو آلفه من قبل حتى لقد أمضيت فترة طويلة وأنا فى ضيافتها ذاهلاً عن نفسى وعما يغمرها من صخب الحياة وضجيجها ، وهكذا هدانى بل عودنى بخلك الكتابى أن أفزع إلى كنانة الذكرى كلما غلقت الأبواب ، وأوصدت المنافذ دونى وإن فى هذه الكنانة لمستودعاً حافلاً بأفانين السلوى وألوان العزاء ، وذلك غاية ما أتمناه منك فاكتبى بعد ذلك أو لا تكتبى ، وجودى أو لا تجودى ، ونائى عن شاعرك أو لا تنائى ، فما عاد يحفل بهذا أو ذاك مادام ظفر منك أيتها البخيلة ، بكنانة الذكرى .

* * *

(هبة)

كان مما يقدرنى على أعبائى الثقال وكان مما يجمل الحياة فى ناظرى ، شعورى بأن الحياة رزقتنى حبيبة أفزع إليها وألوذ بها لدى الصدمات

وكان كذلك مما يعزينى ويحببنى فى الحياة

شعوري أيضاً بأن هذه الحبيبة قد تخصصت في دراسة ميولي وأهوائي حتى أصبحت تعرف سبحات فكري وخلجات نفسي وهتفات شعوري

وكنت أستبعد أن تدب بيننا بَدَوَاتُ الشك وهمسات الظنون فيما بيننا من حب ولده الامتزاج السامي وغذته العاطفة المنزهة عن الشوائب ورعاه الوفاء الكريم . واليوم ، بل ومن قبل اليوم ، يدهشني أن هذه الحبيبة قد بدأت تنأى بجانبها وتتمرد على صلتنا الروحية المقدسة !!! .. فهي مرة منفعلة غاضبة ، وأخرى صامتة لا تتكلم ولا تجيب ، وثالثة متوعكة المزاج ورابعة تعد بأن تتكلم ، وأخيراً هي تشتم رائحة النفاق في أنفاس !!.. ماذا أيتها الساحرة !

أبهذه السرعة تريدين أن تتحللي من صلتنا ، وأن تحطمي كل ماشدداه من صروح ، وأن تتنكري لمن حاشاه أن يتنكر لك مهما جازيته على الإخلاص حرماناً وعلى الوفاء جحوداً ونكراناً

إنه لمن الجائز أن تبعثي بمثل هذا الكلام الصادم الملقى على عواهنه إلى من اعتادوا إرسال الكلام على عواهنه تزجية للفراغ ودفعاً للسأم

أما أنا الذي أفكر فيما أكتب وأفكر فيما أقرأ ! أيمكن أن يحدث مني هذا ؟

على أن ما أذهلني حقاً أن تختمي رسالتك بقنبلة تذهب شظاياها بقلبي ، فهل تعرفين حقاً أنني أحاول أن أتلهى بحبك

إنك لتؤذين نفس الشاعر وتسيئين إليها حينما تزجين بها في أخلاط النفوس البشرية وتظنين أنها صيغت من طبيعتهم أو نسجت على غرارهم !

وما دام الأمر كذلك فإني — مع إخلاصي الدائم لك — قد صممت على أن أرجع إلى عالمي القديم ... عالم الظلام والغيب ، وسأقفل من ورائي باب صومعتي الأزلية وهيهات أن أصغي لأي صوت ! أو أستجيب لأي دعاء ! أو أخف لأي نور !

وبعد فإذا كنت لا تأسفين على أي شيء ، فإني آسف على كل شيء ! وإذا كنت قد كتبت ما كتبت إلي أخيراً وبسمة العبث والطفولة تهوم على ثغرك ، فإني قد كتبت هذا ودموع قلبي تكاد تغرقني ، يا إلهي ، حتى من كنت أرجو أن تتحقق على يديها الآمال تكون هي آفة الآمال !

يا إلهي إن أحشائي تتقطع والدم الفائر يكاد يلهب شراييني ، فأنقذني يا إلهي وألق على نفسي الطليحة وروحي الكليمة برد العزاء

* * *

إلى هنا أكتفي بهذه اللمحات من رسائل صاحبك وهي في الواقع خلاصة فناء الفكر في القلم ..

ولا أقول فناء القلب أو الروح في القلم لأن فناءها في الواقع معناه خلود الحب ... أما وقد تلاشى ذاك الحب فلا أظن للقلب أو الروح سلطاناً عليه ..

على أن هذه الرسائل لا تخلو من إغراء يبعث الحمرة في وجه الحسناء ويشعرها بأنها إنسانة محبوبة مرغوب فيها ...

ولعل صاحبتي صدقت ذلك لأنها سايرت صاحبها بخواطرها عن طريق قلمها كما يقول وباعترافها أيضاً .. إنما كانت فطنتها أشد من إيمانها

مرت الشهور وهو يحاول أن يثبت لها حبه بأعذب الألحان الشعرية وهي حائرة بين ما يبعثه في صدرها من تحذير عاطفي ، وبين ما تلمحه عليه من آثار القلق والاضطراب والركود والاستسلام لخواطر لا تتعلق بها ... فطالما حذرتها عن المذاري وأسمعها

أناشيد الهوى المستمر بإيحائهن

ومن الطبيعي أن تسترسل فى خيالها وتقيم لكل مشهد من ألحانه قصة واقعية أثرت فى حياته تأثيراً أهاب بشاعريته إلى التغنى ...

وشاءت أن تظل فى عراب تحفظها وتدأب على اختباره حتى تتكشف حقيقة نفسه فكتبت إليه تقول :

أتركك لتنعم بالحب فى كل واد

فكتب إليها يقول :

يا لك طفلة ! أنا أحب ؟ ومن أحب ؟ وهل خلق الله بعدُ تلك التى تستطيع أن تنهض بحبى...؟ إننى يا عزيزتى ما أحببت مطلقاً ، ولن أحب أبداً ... إننى يوم أحب أحطم أو أتحطم أو هما معا . وأين هذه الحبيبة التى لها من الرهافة والحساسية ما تستطيع أن تلمس نبضات قلبى واهتزاز مشاعرى وخلجات روحى ؟

إن هذا الشعر الذى كان يروقك أنت وغيرك كذب كله، إنه ضرب من الغزل التجريبي ألقيت به فى محيط القلوب الفارغة انتقاماً منها وسخرية بها ، لقد كان لى حبيبة واحدة ... آه نعم حبيبة صفعتنى على خدى بيد رطبة صغيرة يوم قالت لى :

أنت مجنون

حبيبة ضربت على نحوم عالمها عجائب الرقى . ثم سعيت إليها فى ضباب يتنفس عن شذى البنفسج وأنا أعزف على أوتار قلب جديد أناشيد بجنحة . حتى إذا انتهيت إليها تباهلت وتجاهلت ونفرت مغمغمة :

أنا لا أعرفك

إذن دعينى من حديث الحب . فأنا لا أحب، فأى فتاة تطيق الإقامة بجانب رجل مريض النفس والعقل ؟

رجل يثور ويهدأ ويحب ويكره فى آن واحد ، وهانذا أكتب ولا أدرى إلام تنتهى مثل هذه الكتابات الضالة .

ومع أنى مضطرب الشعور موزع الخاطر ؛ فإنى أحب أن تعتقدى أنى لم أخن عهدك مطلقاً ولم أله بمخلوق أو مخلوقة — حقاً إن حياتى كانت وما زالت ملأى بالعجائب والمغريات ، ولكن أى مغريات هذه ؟ إننى لست ممن يجرون وراء ملذاتهم حسبما اتفق، فأنا رجل فنان شاذ، فإذا سقطت فهى سقطة الفنان والحمد لله إذ نجانا ، وما كان لمثلى أن يتلهى بالموتى . وبعد فإياك أن تثيرى الضباب برياحك الهوجاء ، ودعينى — دعى هذا المريض يحلم — يحلم بمقدم هذا الطبيب — ويميناً لئن لم يشفنى من هذا الداء لألقين به من حالق ، ولأذهبن أنا وهو إلى الجحيم .

* * *

إلى هنا أدع صاحبك وأعود إليك . كيف خدعك حسك أنت التى خلقت من مجموعة أعصاب حساسة ...؟

قد يكون للأسلوب الجذاب تأثيره على الأفئدة والأفئدة الشاعرة على الأخص ، ولكن ما صلة الحب بهمسات القلم ؟

قد تعترضين وتقولين ، وهل كانت همسات القلم إلا خواطر النفس وسوانح القلب !.

ومعك الحق ، ولكن فى غير هذا الزمن يا صاحبتى ...

فقد طغت المادية على كل شىء وشوهت جلال الروحانية الشفيفة ...

اسمعى إلى جدتك عند ما تقص عليك حديث

قلبها . واسمى إلى نفسك — أنت المستديرة المثقفة ثم قولى أيكما أصدق وأعف وأقدر على الاحتمال والصبر ...

الفطرة التى حاربتاها فى الصميم وشوهتاها بظواهر المدنية الراهنة التى عفت على الصدق والعفة والقناعة والطمأنينة

وفى الواقع لا ذنب لك ولا ذنب لصاحبك أيضاً كلاكما مسرح لأضاليل الحياة . أنت معذورة لأنك حسبت أن قلبك الطيب جدير بحب رجل ، وهو معذور لأن المرأة تناديه من كل مكان ، فى الشارع وفى النوادى ، فى المتاجر وفى المراقص ، وهى مستسلمة تعبث بكل شىء فى سبيل تحقيق أمنية ترجوها ...

ولا بد أن تأمل ولا بد أن تسعى إلى أملها ... لأن الرجل فى هذا العصر لا يبحث عن المرأة المتحصنة التى تحبس نفسها داخل دارها خوفاً على سمعتها وكرامتها ...

إذن كان أمر صاحبك فى النهاية ... لا بد منه

* * *

قارئى فى دهشة يتساءل : وما هذه النتيجة ؟ وكنت أحب أن أتركه حيث هو يتساءل ويفكر .. ولكن لا بد من إجابته وإلا اتهمنى بالقصور لأنه تعود أن يجد على مائدته الأدبية كل ما تشتهى نفسه أما أن يفكر ويبحث عما وراء هذا ونهاية ذاك فلم يحن ذلك الوقت بعد ...

ذهبت صاحبتى لعيادة صاحبها المريض بعد أن أفهمها أنها سبب علته وأنه فى طريقه إلى القبر ... ذهبت إليه دون أن تحدد موعداً وكانت لها بأسرته علاقة تبيح لها الزيارة فى كل وقت

لم تجده ... فانتظرته وراحت تتلهى بمطالعة الكتب والمجلات الملقاة على مكتبه ... ودفعها الفضول إلى فتح درج مكتبه ... وبيد حذرة سحبت بعض لفافات الورق ...

وبسرعة البرق الخاطف تطلعت إلى محتوى كل رسالة ...

رسائل غرام متنوعة ...

كتبت إلى ثلث من الفتيات ...

عائشه ، فاطمه ، نعمات ، سنيه ، نفوسه ، زينب الخ هذه الأسماء ...

وكلها تفيض بأحاديث الحب المشبوب المستعر

وكلها تصور غرام الكاتب

وكلها تنشده تحت قدمى المرأة فى خضوع لا يتفق مع كبرياء الرجل

رسائل ... بما تحويه من لهب وشوق وحنين ورغبة وأمل وتوثب ... كتبها لمشرات الفتيات وكل ما يفرق بين هذه وتلك ... اسم المرسل إليها

* * *

كان ذلك يكفى لرد الفتاة إلى صواب عقلها ... لمحطمة ذلك الهيكل الخيالى الذى سمته حقيقة وسمت به إلى ما وراء الخلود ، لكن هل كل فتاة يمكن أن تحذر وتعود إلى نفسها دون عناء كهذه ؟

لقد خفف الشك وطأة المصاب فهل كل فتاة تشك فى الرجل الذى تحبه ! ! أنا أدعو إلى الشك فيه لتظل بعيدة حتى إذا صدمها القدر به عز عليها البكاء .

جميل العلايلى

(٢)